الباب الخامس

هذا الإنسان ملاك أو شيطان ؟

(إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا)

(الإنسان)

هذا الإنسان ملاك أو شيطان

اختص الله الملائكة بصفة الطاعة وعدم عصيانه فخلقهم لهذه المهمة (لا يعصون الله ما أمرهم ..) واختص سائر مخلوقاته بتسخيرها جميعًا لنفع الإنسان واستفادته بها فى كافة شئونه وأغراضه ، واختص الإنسان بحرية الفكر والإرادة والتمييز وحمل الأمانة .. فكان ما كان من شأن الإنسان يرتقى فيكون خليفة الله فى أرضه .. وعبد الرحمن الربانى السالك دربه .. وينحدر فيرتد أسفل سافلين ومأساة الإنسان أنه معقد التركيب ، فالجسد تتصارع فيه شهوات الغضب والجنس والبطن .. والنفس توسوس بالهواجس والحقد والحسد وكل ما هو سوء . والعقل يلوم ويصحح ثم ينحرف فيخطط لكل الشرور .. والروح ذلك الشيء الربانى اللطيف يتزع به إلى الكمال والجمال .. والإنسان بين غضبه وشهواته ووساوسه ممزق بأمراضه وشوائبه ، والإنسان بصحة عقله وسمو روحه متفوق على الملائكة .. وهو بين تمزقه وتفوقه يتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل مشدودًا بروحه ورأسه إلى السموات ومشدودًا من جسده ونفسه إلى أعماق الأرض .. فإذا تغلبت روحه وعقله كان ملاكا ، وإذا انتصر جسده ونفسه الأمارة بالسوء كان شيطانًا .

تقول صويحبات يوسف كما يخبرنا الله عنه (ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم) ثم ينحدر الإنسان فيقول سبحانه وتعالى عنه .. (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

فما هى تلك الآفات والعلل التى تجعل الملاك أضل من الأنعام ؟ وكيف تكون مواصفات الإنسان الكامل ؟

يقول بعض العلماء : [1]

ما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا يمكن الاستعانة بها عن طريق الوصول إلى الله تعالى ، فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد ضل ضلالا مبينًا . ذلك أنه عطل جملة هذه الأعضاء أو استعملها ، لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو فى عمارة طريقه دون منزله ، إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة .

ولقد اصطحب الإنسان فى خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك تراه قد اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية :

فهو من حيث سلط عليه الغضب يعمل أعمال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم ، وهو من حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص وما يدخل تحت هذا الوصف – وهو من حيث إنه فى نفسه أمر ربانى فإنه يدعى لنفسه الربوبية فيحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها ، بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة .

وبالجملة كل ما له اتصال بصفات الربوبية فإنه يدعيه ويحرص عليه ، ومن حيث إنه يختص بالتمييز عن البهائم مع مشاركته لها فى الشهوة والغضب حصلت فيه شيطانية فصار شريرًا يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى

---

(١) الشيخ محمد الفق فى كتابه النفس أمراضها وعلاجها – فى الشريعة الإسلامية – مكتبة صبيح ١٣٩٠ هـ .

الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين .

فأما الصفات التى تتولد من طاقة الشهوة فيصدر عنها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والمجون والحرص والجشع والملق والحقد والحسد والشماتة وغيرها مما يلحق بها ..

وأما طاعة الغضب فيتولد عنها صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف ، وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها مما تنطبق عليه صفاتها .

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والغش والخب والخنا وأمثالها مما يجرى عليه حكمها .

لذا فطاعة الله تعالى إنما تكون بمخالفة الشهوات .. فمن أقبل على المعاصى اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكنه ينقص نوره كالمرآة ، التى يتنفس فيها ثم تمسح ويعود فيتنفس فيها ثم تمسح فإنها لا تخلو عن كدورة .

يقول ﷺ :

القلوب أربعة : « قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها .. وفى رواية ذهبت به » .

وقال ﷺ :

« فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى وليحمده على ذلك .. ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . » ثم تلا قوله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) .. الآية .

قال الحسن البصرى : إنما هما همّان يجولان بالقلب ، همٌّ من الله تعالى وهمٌّ من العدو ، فرحم الله عبدًا وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ، قال : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر إلاّ بخير » .

ذلك أنه متى غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى ودوافع النفس وجد الشيطان مجالا للوسوسة فقام بها وحقق تلك الأهواء وجال جولانا سريع الوقع بالغ الأثر والتأثير ، وإذا انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاقت به السبل وعز عليه الحال وهنا انفتح الباب فأقبل الملك وألهم .

وقد روى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية فكتب إليها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا

ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبينى . فكتبت إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : « فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك ، فصم الدهر وليكن فطرك الموت ، وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خوَّلك وأضعافه، ما سر نى أن أشتغل به عن الله طرفة عين ».

وهذه إشارة منها إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى نقصان .. وأن الإنسان الكامل هو الذى يرعى حق الله فى استخلافه له سبحانه فى الأرض .

الإنسان ليس وحده فى هذا العالم

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق فى صور متعددة الخلق والخلق .. فالإنسان من تراب .. ثم من نطفة من منى يمنى .. ، والملائكة من النور .. والجان من مارج من نار .. كذلك فإن الإنسان يتأرجح بين درجات ربانية وينحدر إلى مدارك سفلية شيطانية فى حين أن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وهم متفاوتون فيما سخروا فيه من مهام الخير وميادينه وليس للشر سبيل إليهم وليس لهم سبيل إليه وهم فى هذا يختلفون عن الجان الذى يجوز عليه الخير والشر..

والقرآن يذكر لنا فى آياته العديد من المواقف والصفات لعدد من خلق الله من الأرواح الخفية كالجن والملائكة وإبليس .. وهى مخلوقات لم يكد العلم الحديث بكل إمكانياته يجلوها وإن كان القرآن قد سبق العلم فى هذا المضمار

عشرات المئات من السنين .. وذلك من إعجاز القرآن وتأكيد أنه من عند الله ..

فالقرآن يؤكد لنا أن الإنسان ليس وحده فى هذا العالم فهناك مخلوقات غير مرئية ورد ذكرها فى عديد من الآيات وأكدت بحوث الذرة وطاقاتها ومكوناتها .. وجود هذه المخلوقات التى تتكون من مواد غير مرئية للعين البشرية .. لأنها مواد غير تلك التى يتكون منها الإنسان .. فالإنسان يحترق بالنار فيفنى ولكن القرآن يؤكد لنا فى عبارات موجزة بليغة أن الجان خلق من نار .. وأن الملائكة خلقت من نور .. وأن الشيطان يرانا ولا نراه هو وقبيله ..

وفى هذه الصفحات القليلة نعرض عجالة فى بيان هذه المخلوقات :

(١) الملائكة

والملائكة مخلوقات ربانية خلقت من النور .. وقد يجيئون فى صورة البشر فهكذا نعرفهم فى قصة إبراهيم وقصة لوط .. وكذا فى قصة زكريا ومريم .. غير ان الإنسان وإن رآهم فى هيئة البشر فإنه لا يعرف أنهم من الملائكة إلا بعد حين .. فإبراهيم عليه السلام قدم لهم عجلا حنيذًا طعامًا لهم ولكنه خاف منهم حين وجد أيديهم لا تصل إلى طعامه .. قالوا : (لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) .

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات) . فخاف على ضيوفه (قال يا قوم هؤلاء بناتى هنَّ أطْهَرُ لكم). ولا تؤذونى فى ضيوفى.. ولكن قومه قالوا : (إنك لتعلم ما نريد) .. وهنا فقط تطمئنه الملائكة وتخفف روعه .. (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من

الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم) .

كذلك نرى الملائكة فى قصة مريم فى زى البشر : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًّا) .

كذلك فى أمر زكريا الذى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب يبشرونه بيحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سميًّا والذى يؤتى الحكمة صبيًّا .. كذلك تدخل الملائكة على داود فيفزع .. وكذلك أيضاً يقوم الملكان هاروت وماروت بتعليم الناس السحر ويقولان لهم إنما نحن فتنة .. وتتميز الملائكة بصفة الطاعة لله دون معصية ولهذا يأمرنا الله أن نؤمن بملائكته استكمالا للإيمان به ، ويعلمنا أن الكفر بها ضلال مبين . والرسول ﷺ يقول : « خلقت الملائكة من نور .. وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وكونهم من النور نزههم عن الوقوع فى الشهوات والمعاصى فهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له .. وهم لا يستكبرون فيسجدون لآدم .. ويعترفون أنه لا علم لهم إلا ما علمهم العليم الحكيم .

وإذا كان من الإنس والجن ذكور وإناث فإن الملائكة من عباد الله وليسوا إناثا فهم من جنس واحد .

يقول تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خَلْقَهم ستكتب شهادتهم ويسألون). وعدد الملائكة لا يمكن التحقق منه، ولكنَّ هناك أمرا يثير الرغبة فى المعرفة، ذلك أن لفظ الملائكة تكرر ٦٨ مرة فى القرآن وهو عدد يساوى تماماً عدد مرات ذكر الشيطان .. ذلك برغم أن اللفظين لم يقترنا فى آية واحدة . أما علة المساواة فى الأعداد فالأمر فيه عند الله وحده .

وواضح أن رسالة الملائكة خير محض كما أن رسالة إبليس الشر المحض .

(ب) الجان

يقول الله تعالى : (وخلق الجان من مارج من نار) .

ويقول تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

ويقول تعالى : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

ويقول سبحانه : (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

ويقول تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) .

وتتعدد الآيات التى تذكر الجن مفردا وجماعة وأممًا .. وتتعدد الصور والمواقف التى يتعرض لها الجن فى القرآن .. فهو يرفض السجود لآدم فى شخص إبليس .

وهو يأتى لسليمان بعرش بلقيس ملكة سبأ فى شخص واحد من الجان .. وهو يستمع إلى القرآن فى شخوص نفر من الجن .. فمنهم الجن المؤمنون بالله .. ومنهم إبليس اللعين .. يؤيد ذلك : (وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددًا) .

وأيضًا (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا) . فقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه . فمنهم من اهتدى ومنهم من ضل فكان

شيطانًا ويدل على ذلك الآية : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا) .

وفى تفسير القرطبي : روى جبير بن نفير عن أبى ثعلبة الخشنى - واسمه جرثوم - أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون فى الهواء - وثلث حيات وكلاب - وثلث يحلون ويظعنون » . وروى أبو الدرداء واسمه عويمر قال : قال رسول الله ﷺ : « خلق الجن ثلاثة فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ريح هفافة - وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب .. وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث : فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين ، وثلث فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله . ويستطيع الجن التمثل فى عديد من الصور والهيئات للمخلوقات الحية كالإنسان والحيات والفيران وغيرها . ومنهم الذكور والإناث فهم يتناسلون .. ومنهم أعداد تماثل أعداد بنى البشر حيث تدل الآية : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . ويتكرر ذكر عبارة (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) كذلك جاء فى النص القرآنى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) فكلمة يا معشر تدل على كثرتهم .. وكلمة لم يطمثهن تدل على تزاوجهم وكلمة برجال تدل على أن منهم رجالا وإناثا ..

كذلك فإن مما يدل على تمثلهم الهيئات قوله (ﷺ)

« من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى) .. وهذه القدرة على التمثل هى خارق قدرات الجن كقدرته على لمس السماء حيث تدل الآية : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا . وأنا كنا نقعد منها

مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا) ويقول تعالى : (وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

فائدة : فى قصة سليمان دليل على أن الذى عنده علم من البشر المؤمنين يمكن أن يؤيده الله بقدرات تفوق قدرات الجن بتأييد الله له حيث أتى بالعرش قبل أن يرتد رمش العين إليها ذلك الإنس الصالح فى حين أن الجن عرض على سليمان أن يأتى بالعرش فى مدة أطول من ذلك .

(حـ) الشياطين

ذكر الشيطان بلفظه فى القرآن ٦٨ مرة – وشيطانًا مرتين – والشياطين بلفظها ١٧ مرة وشياطينهم مرة واحدة والشيطان هو ذلك المخلوق النارى الجبار المتصف باللعنة والكبر والإضلال والإزلال يعد الفقر ويأمر الفحشاء ويستذل الناس بما كسبوا ويوقع بينهم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويزين للعاصين أعمالهم ويضلهم ضلالا بعيدًا فمن اتخذه وليًّا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا .

والشيطان كما يكون من الجن يكون من بعض الإنس وهو (الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) .. وقد وسوس لآدم وحواء فأخرجهما مما كانا فيه فى الجنة وأزلهما عنها .. فهو للإنسان عدو مبين وهو لله عصى من الكافرين... وما من رسول أو نبى تمنى قبل محمد ﷺ إلا ألقى الشيطان فى أمنيته ولكن الله أعان النبى محمدًا ﷺ على شيطانه فأسلم ولكنه وسوس لآدم وحواء وموسى وأنسى يونس الحوت وتلت الشياطين على ملك سليمان .. والله تعالى يقول (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا شياطين الإنس والجن) .

وقد ورد اسم الشيطان (بالألف واللام) فى الديانات الثلاث .. والرأى

الغالب أن كلمة (الشيطان) عبرية ما لم يكن قد سبق اليهود إليها أحد من المشارقة .. والأرجح عند العقاد أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية حيث اشتملت اللغة العربية على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ففيها مادة (شط – شاط – شوط – شطن) وهى كلمات تحمل معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق .. وهى معان شيطانية .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان وذكر اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية ويؤخذ من سفر أيوب– وهو عربى باتفاق المؤرخين – وكذا يؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فهو ليس مجرد اسم معرب .

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر (إبليس) .. (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) . والإبلاس فى العربية فقد الرجاء وتدليلا على هذا المعنى نقول فى كلامنا « أمل إبليس فى الجنة » أى فقده الرجاء فيها .. ذلك بعصيانه الله حين أمره أن يسجد لآدم .. وجنوده من الإنس والشياطين والمردة من الجن يضلون الناس ويأتونهم من كل اتجاه وبكل الأساليب .. وبعض الشياطين قرناء للناس أما البعض الآخر من القرناء فمن الجن الذين ليسوا شياطين .. ويؤكد العلم الحديث أن وسوسة الشيطان للإنسان لا تقف عند حد حتى إنها لتحثه على قتل نفسه والقضاء عليها ليس فقط على قتل غيره ، وشيطان الجن أقدر فى الوسوسة من شيطان الإنس (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) ولذا جاء متقدمًا عليه فى الآية . وواجب الإنسان أن يستعيذ الله كلما نزغه نزغ من الشيطان .. ويقول « ديل كارنيجى » : لماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق ؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن فى أشد الحاجة إلى هذا الإيمان ؟ ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟ .